إدوارد سعيد وتفكيك الخطاب الكولونيالي

قراءة في كتابي الاستشراق والثقافة والامبريالية

Edward Said and the dismantling of the colonial discourse

A reading in my book Orientalism, Culture and Imperialism

طالبة دكتوراه/ صورية مكاحلية

أستاذ دكتور/ عمر زرفاوي

قسم اللغة والأدب العربي -جامعة العربي التبسي-تبسة(الجزائر)

sorrayamekahlia@gmail.com

تاريخ الإيداع: 2018/05/08		تاريخ القبول: 2019/03/07

ملخص: تهدف هذه الدّراسة إلى اكتناه الآليات المنهجيّة التي اتّكأ عليها إدوارد سعيد في كشف التواطؤ بين الخطاب المعرفي الغربي الموجّه لدراسة الشرق و السلطة الكولونياليّة، فمع بزوغ فكر الاختلاف إلى الساحة النقديّة تأثّر به إدوارد سعيد وراح يبحث في الأنساق المسكوت عنها في الإرث الثقافي الغربي الذي محوره أن الذات الغربية نموذج للحضارة و التقدم، أما ما هو خارج حدودها فهو مهمّش مسوّقة بذلك مشروعها الكولونيالي على أنّه هدف إنساني، ويعدّ بذلك كلّ من كتابي الإستشراق و الثقافة و الإمبريالية لإدوارد سعيد أحد المرجعيات المهمة في تأسيس خطاب ما بعد الكولونياليّة.

الكلمات المفتاحية: الإستشراق؛ الخطاب؛ الكولونيالة؛ ما بعد الكولونيالية؛ المركزيّة.

Abstract: This study aims to draw upon the methodological mechanisms upon which Edward Said relied on revealing the collusion between the Western cognitive discourse directed towards the study of the East and the colonial authority. With the emergence of the idea of difference to the monetary scene, Edward Said was influenced by the Western cultural heritage, The Western self is a model of civilization and progress, but what is beyond its limits is marginalized, thus marketing its colonial project as a human purpose. Thus, the books of Orientalism, Culture and Imperialism

المنارة للاستشارات

ww

by Edward Said are one of the important references in establishing the postcolonial discourse Of.

Keywords: Orientalism; discourse; colonialism; postcolonialism; Central

مقدمة:

لقد استطاع الفكر الغربي أن يثبت دوما أنه الفكر الذي يخلص الإنسانية من التخلف و الجهل والفقر واللاإنسانية، و كان للثقافة دور مهم في إيصال الشعوب غير الغربية إلى القارئ الغربي على أنها متخلفة وبدائية، تنعدم فيها أساليب الحضارة و التمدن أما الغربي فهو الكائن الذي وصل إلى ذروة التقدم والحضارة، فكان عليه أن يجسد الرسالة المقدسة المتمثلة في نشر الحضارة التي توصل إليها على الآخر الهامشي ليكون استعمار الآخر حقا من حقوقه الشرعية.لكن بعد صدور مؤلف **الاستشراق** (1978) لصاحبه المفكر الناقد **إدوارد وديع سعيد** (1935ـ2003) اتضح أن الدراسات التي كانت موجهة لمعرفة الآخر و الصورة الدونية التي مثل بها الآخر تضمر أنساقا ثقافية لها علاقة بالاستثمارات المادية الغربية في الشرق، و أن المنتجات الثقافية الغربية كرست المركزية الغربية على حساب الثقافات الأخرى وسوقت الكولونيالية الغربية على أنها مشروع إنساني و لكنه يضمر أهدافا لا إنسانية، لذلك ارتأينا أن تكون هذه الورقة البحثية محاولة للبحث في المرجعيات الفكرية التي استند عليها مشروع إدوارد سعيد النقدي في تقويضه للخطاب الكولونيالي.

أولا. **الاستشراق و تواطؤ المعرفة / السلطة:**

لقد قوّض إدوارد سعيد بفكره الخصب وأفكاره النيرة مبادئ المشروع الغربي القائم على العقل الخالص و الليبرالية المحضة، بدعوى تنوير الإنسانية و نشر التحديث و إدخال الآخر العالمية «التي هي إيديولوجيا الغرب لمواجهة الثقافات غير الغربية»[(i)]، بعدما فكّك الخطاب الغربي الموجه لمعرفة الشرق المتمثل في الخطاب الاستشراقي؛ حيث توصل إلى أن هذا الخطاب مؤسسة غربية هدفها إقصاء الآخر عن طريق الصورة التنميطية التي مثل بها الشرقي على أنه « لا عقلاني فاسق طفولي مختلف، بينما صورة الغربي عقلاني متحل بالفضائل ناضج سوي»[(ii)].

ليتمظهر الوجه الحقيقي للاستشراق في أنه « علامة على القوة الأوروبية، الأطلسية بإزاء الشرق أكثر منه كإنشاء حقيقي عن الشرق(وهو مايدّعي الاستشراق في شكله الجامعي أو البحثي كونه) »[(iii)] فقد اقترنت المعرفة بالشرق في النص الاستشراقي بالاستعمار الغربي، كون

المنارة للاستشارات

المعرفة التي نقلت عن الشرق معرفة مرتبطة أيما ارتباط بسلطة المستشرق فلم يكن الشرق الذي نقله الاستشراق شرقا حقيقيا بل شرقا صنعته اللغة، متأثرا إدوارد سعيد في ذلك بأفكار فيلسوف العدمية **فريدريك نيتشة** (1844. 1900) عن حقيقة اللّغة كونها « جيش متحرك من الاستعارات و الكنايات و التشبيهات المجسمة و بإيجاز خلاصة من العلاقات الإنسانية، عمقت و نقلت و زخرفت شعريا و بلاغيا، و صارت بعد استعمال طويل تبدو صلبة شرائعية، وملزمة لشعب ما: الحقائق إيهامات نسي المرء أنها كذلك»[iv].

لا جرم إذن أن حقيقة الشرق لم تكن إلا حقيقة على مستوى اللغة، حقيقة ابتعدت عن موضوعها وارتبطت بشيء عداه، فنقلت هذه اللغة شرقا ليس« بصورته الحقيقية بل بصورته التي رسمها له الاستشراق و رابطة المعرفة و السلطة تربط رجل السياسة الأوروبي أو الغربي بالمستشرقين الغربيين مثل قوس متصل الحلقات»[v]، فأصبح الشرق من منظور الاستشراق شرقا مخترعا، تمثيليا، لأن الشرقي لم يعرف نفسه كما يجب، فكان من واجب المستشرق أن يعرفه على حسب خلفياته الإيديولوجية.

يستوقفنا هذا التواطؤ الإطرادي بين المعرفة و السلطة عند الفيلسوف ***ميشيل فوكو*** الذي قوض مفهوم السلطة، فلم يعد مفهومها مقتصرا على أجهزة الدولة والدساتير و القوانين وكشف الحجاب عن تلك العلاقات الخفية التي تجمع بين السلطة و المعرفة« فالسلطة تنتج المعرفة...و أن المعرفة و السلطة تقتضي كل منهما الآخر مباشرة ــ فلا علاقة سلطوية دون أن يتشكل حقل معرفي بالارتباط معها كما لا توجد معرفة لا تفترض و تكون في آن واحد علاقات سلطة»[vi].وبهذا يكون ميشيل فوكو أحد المرجعيات الفكرية التي استند عليها إدوارد سعيد في نقده لمؤسسة الاستشراق.

جاء الخطاب الاستشراقي كسبب لإضفاء المشروعية على الكولونيالية الغربية وفي الوقت ذاته جاء كنتيجة للمعرفة التي توصل إليها عن الشرق، فالخطاب الاستشراقي دليل على أن من يملك السلطة يستطيع أن يدرس ويعاقب من هو أدنى بمعنى الشرق، إذ يعرف فوكو الخطاب بقوله :« إن الخطاب شيء بين الأشياء، وهو ككل الأشياء موضوع صراع من أجل الحصول على السلطة، فهو ليس فقط انعكاسا للصراعات السياسية بل هو المسرح الذي يتم فيه استثمار الرغبة فهو ذاته مدار الرغبة والسلطة»[vii].

فكان الغربي ينتج دائما خطابا يصور فيه الشرق بأنه عاجز عن انجاز أبسط الأشياء فكيف له أن يحكم بل هو محكوم، وكما قال كارل ماركس:«إنهم لا يستطيعون تمثيل أنفسهم،

المنارة للاستشارات

و لا بد أن يمثلهم أحد»[viii]، وما تمثيل الآخر / الشرقي إلا عن طريق من هو أرقى حضاريا، فكان الغربي يمثل دائما الشرقي تمثيلات دونية حتى يضفي مشروعية على رسالته الحضارية التي لم تعد شعارا للإعمار بل أصبحت شعارا للاستعمار و بسط النفوذ على من لا يستطيعون تمثيل أنفسهم، وعلى هذا الأساس كانت المعرفة الاستشراقية متواطئة مع السلطة الكولونيالية والتمثيل الرغبوي الذي نتيجته دونية الآخر و فوقية الأنا العارفة.

قوّض إدوارد سعيد أسطورة الأدب البريء لأنه يبقى دائما من إنتاج البشر ويدخل فيه السياق التاريخي الذي أنتج فيه مثل النص الاستشراقي في القرنين الثامن عشر و التاسع عشر فقد أنتج مع فترة انتشار المركز الميتروبوليتاني والمتمثل في الامبراطوريتين الفرنسية و الإنجليزية على حساب الأراضي الشرقية، لذلك أكد إدوارد سعيد أن النصوص « حتى و في أسمى شكل لها تبقى دائما فريسة الوقوع في شراك الظرف و الزمان و المكان و المجتمع»[ix].

أوجدت تراتبية السلطة مع المعرفة الاستشراقية مبحثا يدعي العلمية إلا أنه يضمر أهدافا غربية سياسية، هذا المبحث قدم شرقا متخيلا، شرقا صنعته اللغة هذه اللغة لغة ذات مهيمنة أرادت أن تجعل من نفسها هي المتحدث الرسمي عن موضوع المعرفة فلا مجال لأن يعرف الآخر نفسه فهو ضعيف و لا يحسن تمثيل نفسه، لنصطدم رأسا هنا مع الفيلسوف الماركسي **أنطونيو غرامشي** الذي « ميز بين نوعين من القهر يتكاملان كي تتم الهيمنة، فهناك الهيمنة عبر القوة (كما استخدمتها الجيوش الغازية أو البوليس القمعي) و هناك أيضا هيمنة لا تستخدم القوة بل تتسلل إلى العقل و تحتله وهي توظف النصوص و الثقافة كي تقنع التابع بتخلفه و دونيته و بعدم قدرته على المواجهة و المقاومة فتخلف سياقا يساهم في التبعية و يعلي من شأن ثقافة السلطة و سياستها»[x].

يعد غرامشي أحد مرجعيات إدوارد سعيد في مفهومه للهيمنة الناعمة أو الثقافية، وكذلك في مفهومه للمثقف العضوي الذي استند عليه إدوارد سعيد في كتابه تمثيلات المثقف، فالهيمنة الثقافية عند إدوارد سعيد في مؤلفه الاستشراق هي المعرفة الاستشراقية التي مارست هيمنة على ثقافة الآخر وجعلته صامتا من خلال الصور الدونية التي مثلته بها ورضوخه لها، دليل على إحساسه بأنه فعلا بأنه موسوم بتلك الصفات، في حين أن صاحب تلك المعرفة يمتاز بصفات حضارية ونظرا لهذا الوصف يعيش الآخر تابعا له عاجزا عن مقاومته لأنه صاحب السلطة العليا، ولماذا أصلا يقاوم من جاء كي ينشر الحضارة في أرضه؟

المنارة للاستشارات

يعتبر إدوارد سعيد في نقده لمنظومة الاستشراق و التشكيك في هذا الإرث الثقافي الغربي أحد المتأثرين بما بعد الحداثة التي يعرفها **فرانسوا ليوتار**« بأنها التشكك إزاء الميتاحكايات هذا التشكك هو بلا شك نتيجة التقدم في العلوم لكن هذا التقدم هو بدوره يفترضه سلفا و أبرز ما يناظره قدم جهاز إضفاء المشروعية الميتا ــ حكائي، هو أزمة الفلسفة الميتافيزيقية»[xi].

يمثل الاستشراق بالنسبة لإدوارد سعيد سرديّة كبرى تغيب فيها حقيقة المعرفة التي تحويها سائرا في ذلك على نهج ليوتار في تعريفه لما بعد الحداثة، فالأزمة التي وقعت فيها فلسفة الميتافيزيقا جعلت الثورة تقوم على زعزعة ركون كل ماهو ثابت وقار، ولعل الحقيقة الوثوقية التي ميزت المعرفة الاستشراقية إحداها، وذلك من خلال ما توصل إليه إدوارد سعيد من كشف لعلاقات مضمرة بين المعرفة و السلطة الكولونيالية و إثباته أن«الاستشراق في جوهره مذهب سياسي فرض فرضا على الشرق لأن الشرق كان أضعف من الغرب»[xii].

لم يكن إدوارد سعيد ليصل إلى هذا الفتح المنهجي في الدراسات ما بعد الكولونيالية، لو لم يفكك الخطاب الاستشراقي و يبحث في المسكوت عنه المتواري خلف نسيج لغوي متين مسيج بسياج العلمية والموضوعية، مستفيدا في ذلك من تفكيكية ***جاك دريدا*** و إن كان لايلتزم بالمقولة الديريدية لا يوجد شيء خارج النص، فهو من جهة يهمه جدا تفكيك الخطابات التي بين يديه و من بينها الاستشراق، غير أنه يرفض أن يساءل و يستنطق من الداخل دون مراعاة العودة إلى ما هو خارج النص، فإدوارد سعيد لا يعزل النص عن الابستيمية المحيطة به و هذا ما فعله مع الخطاب الاستشراقي الذي ربطه بواقع انتاجه، فكان كتابه الاستشراق كتابا عن« الغرب و إشكالاته الفكرية و الخلخلة الجوهرية في ثقافته»[xiii]،من خلال اكتشاف تواطؤ المعرفة بالسلطة.

ثانيا . تواطؤ الرواية مع الإمبريالية الغربية:

يعد كتاب **الثقافة والإمبريالية (1993)** رحلة من الخارج نحو الداخل من خلال الغوص في ثنايا الثقافة الغربية و اكتناه أهم الأنساق التي تمررها ثم الدخول إلى ثقافة المقاومة والمعارضة للمستعمرات واستنباط آليات الرد على المركز الكولونيالي، ليكون بذلك الكتاب تكملة لكتاب الاستشراق وإجابة على الأسئلة المطروحة فيه .

المنارة للاستشارات
ww

كرّس الغربي المنتجات الثقافية التي هي أبلغ شأنا من القوة العسكرية لصالحه بغية الوصول لأهدافه المنشودة وقد أثبت إدوارد سعيد أن «المنتجات العظيمة للثقافة هي منتجات محسوسة واستثنائية وبالإشارة إلى الأعمال الجمالية فإنه يمكن لهذه النتاجات أن تكون أعمالا عظيمة من إبداع أوزان تضم . في الوقت نفسه . وجهات نظر سياسية ظاهرة البشاعة والقبح : وجهات نظر تخلع الإنسانية عن غير الأوروبيين وتبرز شعوبا وأصقاعا بأسرها خاضعة ودونية جاعلة إياها مقتضية حكم الأوروبيين »[xiv] ومن الأشكال الثقافية التي استطاع بواسطتها الغربي أن يزرع إمبراطورياته في بلدان العالم الثالث، والتي من خلالها يحاول إدوارد سعيد اكتناه أهم الأنساق المضمرة من خلال اختيار أهم النماذج التي كانت المركزية الغربية وسلطتها هي المتنفس للكتابة عنها، ولكن كيف واجه المستعمَر هذا النوع من الكتابة ؟ فهل الرواية مثلها مثل النص الاستشراقي مارست تشويه الحقائق؟

يهدف إدوارد سعيد من خلال كتابه الثقافة والإمبريالية إلى دراسة أشكال ثقافية من إنتاج الإمبراطوريات الغربية الحديثة في القرنين التاسع عشر والعشرين كالرواية، التي يعتبر كاتبنا أنها كانت عظيمة في صياغة وجهات النظر والتجارب الإمبريالية، فقد كشف عن «التواطؤ بين نشأة الإمبراطورية الاستعمارية و تطورها و توسعها ونشأة الرواية الحديثة في الغرب واكتمال خصائصها الفنية، فالرواية كانت أكثر الأشكال الأدبية الجمالية التي لم تعبر عن التوسعات الاستعمارية فحسب وإنما ارتبطت بها . هذا الترابط كان نتاجا لنوع من التفاعل الذي يأخذ على السطح شكلا متوازيا بين الظاهرتين الاستعمارية والسردية »[xv].

إن تفاعل الإمبراطورية الاستعمارية مع الرواية ليعتبر شيئا طبيعيا لأن الفكر الغربي دوما يجعل من الأشكال الثقافية هي المؤسسة التي بفضلها تكرس آليات التباين بين الرجل الأبيض والرجل الملون ولما كان السرد الروائي من أهم الأشكال الثقافية والجمالية التي تسري مع التاريخ كما يسري دم الكائن الحي في الشرايين، فقد كان معروفا ودون شك أن يقف مع الإمبراطورية الاستعمارية كي تتوسع أكثر وتنشر توجهاتها على كافة بقاع الأرض ويغدو بذلك «السرد [حاسم] الأهمية بالنسبة لمنظومة [إدوارد سعيد]، إذ النقطة الأساسية هنا هي أن القصص في اللباب مما يقوله المكتشفون و الروائيون عن الأقاليم الغريبة في العالم»[xvi].

فقد قام المركز الكولونيالي «بتحويل السرد من نسق أو نمط شكلي إلى نشاط تلتئم فيه السياسة والتاريخ والتأويل بوصفه موضوعا للنقاش النظري والأكاديمي الأكثر راهنية»[xvii]، ليعلن أن الرواية شكل من أشكال التواطؤ مع الإمبريالية الغربية، وبوصفها في الأصل نتاج ثقافة استعمارية أنتجت من أجل مباركة الاستعمار، فالمعرفة التي تحتويها الرواية وتاريخها

المنارة للاستشارات

أيضا يشكلان سلطة تظللها الليبرالية الغربية التي حاول مفكروها تسويقها على أنها مشروع إنساني على من استضعفهم الغرب و أيقن أن ثقافته إنما هي سهم شرعي لا بد من تسليطه على من هم أقل ثقافة[xviii].

وقد أكد إدوارد سعيد في الفصل الثاني من كتاب الثقافة والإمبريالية أن « الرواية هي أكثر الأشكال الأدبية الرئيسية حداثة زمنيا، وإن نشوءها هو الأكثر قابلية للتأريخ، وحدوثها هو الأكثر غربية ونسقها المعياري للسلطة الاجتماعية هو الأكثر بنينة، ولقد حصنت الرواية والإمبريالية إحداهما الأخرى إلى درجة عالية يستحيل معها، تبعا لما [يطرحه]، قراءة إحداهما دون التعامل بطريقة ما مع الأخرى»[xix].

وتعتبر رواية ***"روبنسون كروزو"لدانيال ديفو*** أول رواية دشنت في إنجلترا وقد نشرت سنة (1917) وهي رواية بطلها مؤسس لعالم جديد أي تدور حول أوروبي يخلق لنفسه مستعمرة على جزيرة خارج أوروبا ويقوم بحكمها واستعادتها للمسيحية و لإنجلترا، فالرواية تبشر بفكرة قوة الفرد المتحضّر في عالم خامل و مهجور، يظل منسيا إن لم يدرج في التاريخ الذي يمثله رجل أبيض يكشف روبنسون كروزو بطل الرواية أن الرجل الأبيض هو الأرقى وهو الأصل في المنظومة الإنسانية، وبالتالي قام بصنع وطن وفق قيمه فأخضع الطبيعة وسخّر سكانها من أجل الرجل الأبيض وفقط على حساب الآخر، واصفا إياهم بأنهم الكسالى الخاملين، الموسومين بالوحشية فكانت الأطراف الأساسية للأحداث ممثلة بالرجل الأبيض بينما الآخر كان «جزءا تكميليا لكي يعطي معنى لرسالة الرجل الأبيض ... وبهذا فإن الرواية التي عاصرت نشأة الاستعمار وتوسعاته أقامت تمايزا مطلقا بين الذات الغربية والآخر أفضى إلى متوالية من التعارضات و التراتبيات التي منحت حقا أخلاقيا يقوم بموجبه الطرف الأول بحجة تخليصه من وحشيته ووثنيته وهامشيته»[xx].

إذا كانت رواية ديفو تكشف عن شرعية الاستعمار في الدول الواقعة ما وراء البحار فكذلك هي رواية **قلب الظلام** (1902)، إذ يكتب كونراد عن تجربة ***مارلو***«خلال رحلة بحرية إلى أعماق القارة الإفريقية ورغم أن مارلو يميل إلى إدانة الممارسات القاسية و اللاّإنسانية لبعض المعمرين وعلى رأسهم كورتز أثناء استغلالهم للأفارقة وثروات أراضيهم فإنه يميل في الوقت نفسه إلى تبرير ذلك الواقع الإمبريالي ولو بطريقة جدّ ملتوية وضمنية، والحقيقة أن عنوان الرواية ذاته لا يخلو من شخصنة عنصرية إمبريالية بما أنه يربط إفريقيا بفكرة الظلام ويوحي بالمقابل بفكرة أن الغرب هو مركز الأنوار والحضارة»[xxi].

المنارة للاستشارات
ww

هكذا يستنتج إدوارد سعيد أن «بإمكان السرد الروائي الذي هو منتوج ثقافي أن يساهم في تكريس و عقلنة العمل الإمبريالي بطرق مختلفة، فمثل هذا السرد في نظره يشجع القارئ على تقبل الواقع الإمبريالي كمعطى طبيعي أو حتى ضروري»[xxii] خاصة حينما يصف المستعمَر أو الآخر (التابع) كمخلوق ضعيف وبدائي أو همجي، وقد يكون من آكلي لحوم البشر.

استطاع إدوارد سعيد و بكل منهجية متقنة أن يستنطق النص الروائي الفرنسي ويعيده إلى دنيويته رابطا إياه بالواقع التاريخي، حيث فكك روايات المؤلف الروائي **ألبير كامو** من خلال ما أطلق عليه بـ: **كامو و التجربة الاستعمارية الفرنسية**، ألبير كامو الذي ولد في الجزائر ولكنّه ثار ضدها لأنه لا سبيل للمشاعر الإنسانية ما دام الوعي الغربي يسيطر على العقل، ولا مجال لإعطاء العدالة ما دامت فرنسا تعطي الأحقية لها في أن تضم الجزائر إليها وتصبح مقاطعة فرنسية؛ ذلك هو ألبير كامو الذي كان دائم الحنين إلى «عالم هادئ يعيش فيه أهل "الأقدام السوداء" كأسياد في الجزائر في حين يبقى الجزائري عبدا للأبد»[xxiii].

الأقدام السوداء تضمر النسق الفرنسي فروايات كامو كلها ملفعة بالإقصاء التام للجزائري وخاصة روايتا(الغريب والطاعون) اللتان« تدوران حول موت عرب، وهو موت يبرز ويفهم بصمت مصاعب الضمير و التأمل التي تعانيها الشخصيات الفرنسية»[xxiv]، هكذا العرب في مشرحة الغرب العربي ميت وهامد ويقوم الغربي بتشريحه بمشرط الكتابة الروائية و الاستشراقية فوق طاولة السلطة والفوقية العرقية وبهذا تصبح الرواية وليدة فكر يروج للإمبريالية الغربية.

يتضح من خلال هذا التحليل أن صاحب الثقافة والإمبريالية قام بتحليل الخطاب الكولونيالي وبعث ما تختزنه الرواية الغربية من آثار استعمارية وخطط إمبريالية ليكون بذلك المركز الغربي قد روض النص الروائي بغية خدمة الإمبريالية الغربية، حيث شكك إدوارد سعيد في مقولة أن الرواية نص جمالي أخضعت جميع آلياته لتشكيل اللغة وجعلها في قالب ساحر أخاذ مليء بالوجدان والأحاسيس وإنما طوّعت هذه الآليات بغية بروز الرجل الأبيض صاحب النفوذ والتمدن والتحضر، وبروز رجل ما وراء البحار بأنه ملون خامل ، لا يعرف كيف يمثل نفسه.

بعد أن شكك إدوارد سعيد في الإرث الغربي الروائي أراد أن يقدم البديل من خلال «زعزعة الرواسخ الأكاديمية في النقد ويقابلها بالبدائل في فصل مسهب بعنوان:"المقاومة والمعارضة" أي أنه لا يكتفي بالانتقاد الذي يشكك، بل يقدم أيضا ممارسة مخالفة أو على

المنارة للاستشارات

الأصح وجهة نظر مغايرة لا يعتبرها المرجع النهائي أو الأمثل بل البديل أو الوجه الآخر من الصورة»[xxv].

يريد إدوارد سعيد من خلال هذا الفصل ومن خلال العديد من كتاباته تبيين أن المواطن الأصلاني لم يكن صامتا، و إنما ردّ على المركز الكولونيالي، من هذا المنطلق، إلى أيّ مدى يمكن القول أن إدوارد سعيد قدم البديل؟ وهل ذلك يدخل ضمن ما يسمى اليوم بخطاب ما بعد الكولونيالية ؟

ثالثا . الكتابة المضادة : تقويض البنية التراكبية للاستعمار:

كان إدوارد سعيد متخذا من الفيلسوف ميشال فوكو مرجعية من مرجعياته في مؤلفه الاستشراق من خلال أن من يملك خطابا يملك سلطة، وإذا كانت هناك سلطة فلا بد من وجود مقاومة، إذ يقول:«إنه حيثما توجد سلطة توجد مقاومة.مقاومات ممكنة، ضرورية، مستبعدة عفوية وحشية، منعزلة، متفق عليها، زاحفة عنيفة متضاربة ...»[xxvi].

تتحقق هذه المقولة في الفصل الثالث من كتاب الثقافة والامبريالية حيث وثق بعنوان (المقاومة والمعارضة) حيث يفتح هذا العنوان شهية التحليل والشك الهرمنيوطيقي، فكلمة المقاومة هذه إنما هي فعل يقوم به المستعمر من أجل إخراج المستعمر من وطنه وربما تكون المقاومة كرد فعل من المستعمر على المعارضة التي يتلقاها من المستعمر.

يتحدث إدوارد سعيد عن المقاومة والمعارضة بشأن رد الفعل الذي يتلقاه المستعمر من المواطن الأصلاني، وذلك نتيجة اندفاع «الكراهيات التي كانت تغلي لزمن طويل ضد الرجل الأبيض من المحيط الهادي إلى الأطلسي، متحولة إلى حركات استقلال تامة النمو ناضجة وانبثق دعاة وحدة إفريقية ووحدة آسيوية ناشطون لم يكن ممكنا إيقافهم وصدهم»[xxvii].

إذ يقول:« أشعر أنّي أكتب من منطلق مثير للاهتمام أنا شرقي يرد بالكتابة على المستشرقين الذين ازدهروا لفترة طويلة بسبب صمتنا، أكتب لهم من خلال تفكيك بنية مادتهم العلمية من خلال الكشف عن تحيزها الماورائي التاريخي ، والمؤسساتي و الإيديولوجي والمعادي للتجريبية، أخيرا أشعر أنّي أكتب لأبناء وطني وزملائي حول أمور ذات اهتمام مشترك »[xxviii].

فإذا كانت الرواية لها أثرها البالغ في تمرير الفكر الامبريالي والهيمنة الأوروبية على بلدان العالم الثالث، فإن الرد من قبل المستعمرات كان ردا – وإن جاز لنا قول ذلك – مماثلا

المنارة للاستشارات
ww

ولكن يأخذ من فعل المعارضة أساسا له ، وقد كانت هذه المقاومات بشكل أو بآخر من أجل استرداد الأمم المستعمرة حقها في الإرث الثقافي وبغية تبيين أن المواطن الأصلاني لم يكن يوما صامتا، ليقوض بذلك الفكرة التي نقلتها عنه الرواية الانجليزية أنه صامت وكسول وخامل، وتغيب فيه سمات الحضارة والتمدن.

وقد أخفت الرواية الأوروبية أن الفضل يقع لذلك الصامت الذي بفضله شكلت أسطورة الرجل الأبيض صاحب الحضارة ومركز الإنسانية لنعود بذلك إلى من اشترك في اهتمامه مع إدوارد سعيد صاحب الرائعة **المعذبون في الأرض(1971) فرانز فانون** الذي تدخل كتابته ضمن ما يسمى بكتابة السود حينما يقول :«نعم أن المستوطن يصنع التاريخ ويعرف أنه يصنعه، وهو يستشهد دائما بتاريخ وطنه الأم فيشير إشارات واضحة إلى أنه هناك امتداد لذلك الوطن الأم و معنى هذا التاريخ الذي يكتبه ليس تاريخ البلد الذي ينهب خيراته بل تاريخ البلد (أمته) فيما تقوم به من طغيان واغتصاب وتجويع، ولا يمكن أن يبدل المستعمر هذا الجمود الذي حكم عليه إلا إذا قرر أن ينهي تاريخ الاستعمار تاريخ النهب والسلب وأن يوجد تاريخ الأمة، تاريخ تصفية الاستعمار»[xxix].

انشغل إدوارد سعيد بهذا الناقد متأثرا بمقولاته ومفردا له مساحات على صفحات منظومته الثقافة والامبريالية مهتما بالمعذبين في الأرض في كونه «كتاب هجين ـــ فهو جزئيا مقالة، وجزئيا قصة متخيلة وجزئيا تحليل فلسفي وجزئيا تاريخ حالات نفسي، وجزئيا حكاية ترميزية (أليغورية) قومية، وجزئيا تسام رؤيوي للتاريخ»[xxx]؛إذ يجمع فرانز فانون في المعذبين في الأرض المتضاد والمختلف كما أنه يمارس نوعا من اللاّتحيز فهو يمثل «الاستعمار والقومية في نزاعهما الضدي الثنوي المانوي وفي أنه يمثل بعد ذلك حركة استقلال، وأخيرا في أنه يحول هذه الحركة لتتجلى في الواقع قوة تتجاوز الشخصي وتتجاوز القومي»[xxxi].

كما تطرّق إلى موسم الهجرة للشمال على أنّها كتابة مضادة على قلب الظلام ، فإذا كانت الثانية رحلة من الشمال إلى الجنوب، رحلة ترسم معالم الرسالة المقدسة للرجل الأبيض على الأسود رحلة مدعمة بفلسفة الأنا الغربية صاحبة النفوذ والحضارة...رحلة موسومة بعظمة الرجل الأبيض ودونية الرجل الأسود ـــ الملون ـ رحلة احتقار لقارة إفريقيا البدائية وتقديس للقارة الأوروبية منبع الحضارات، هذا عن قلب الظلام فماذا عن موسم الهجرة للشمال؟

المنارة للاستشارات

تمثل موسم الهجرة للشمال ذروة الانتقام الذي طالما كان دفينا في غياهب نفس الأصلاني الذي كان محكوما بسلطة الأنا الغربية، فمصطفى سعيد بطل الرواية « أحد الغزاة الجنوبيين الذين صعدوا إلى الشمال مدفوعين بالرغبة في الانتقام للأنا التي ظلت طويلا محلا لاحتقار الآخر واستهزائه (الرأسمالي المستعمر)»[xxii].

حمل الطيب صالح في أعماقه ماضيه الذي ترك له جراحا لا يمكن محوها على مستوى أمته وبالتالي لم يجد سوى الكتابة كمقاومة ومعارضة على الفكر الكولونيالي، وبالتالي تكون الرواية قد خدمت كلا الطرفين ففي الفكر الغربي دعمت الإمبريالية والتوسع الاستعماري، وفي الهامش ساهمت في تقويض بنى الرواية الغربية، لتكون العلاقة بينهما علقة مد وجزر.

إذن هو قمة الرّد عندما يفتح إدوارد سعيد مؤلفه على مصراعيه بغية الكشف عن ثقافة المقاومة متمثلة في شعراء وأدباء وكتاب من شرق وجنوب وشمال مثلوا بحق الكتاب المضادة ولتكون بذلك الرحلة إلى الداخل إيجابية صنع من خلالها فكر لا يؤمن بالمركزية ولا بالسلطة،لقد طبق إدوارد سعيد القراءة الطباقية مستوحيا في ذلك الفن الموسيقي، ليكون كتاب الثقافة والامبريالية على شكل تناغم من خلال قراءة السيطرة الإمبريالية بنظمها وأنساقها مع قراءة موازية لها وهي المقاومة الوطنية المعارضة لهذه السيطرة وانعكاس نظم السيطرة والمقاومة في الثقافة أي قراءة الثنائيات المتضادة في علاقة الإمبريالية بالثقافة[xxiii].

لتكون التعددية الجسد الروحي لفكر إدوارد سعيد فهو لم يركز على جانب واحد من جوانب المنظومة الاستعمارية وإنما تناول ثقافة المستعمر وفي المقابل ثقافة المعارضة بأسلوب حواري يتجسد فعلا من ترحالية المفكر الذي لا يؤمن بمبدأ الهوية الواحدية.

خاتمة:

ـ يمكن القول أنّ إدوارد سعيد في مؤلّفيه الإستشراق و الثقافة و الإمبرياليّة قد استطاع أن يكشف عن النسق الخفي في الخطاب الغربي الموجّه لدراسة الآخر/ الشرق، وكيف تتواطأ كل من المعرفة و السلطة في هذا الخطاب بغية تحقيق مشروعيّة الاستعمار الغربي للشرق.

شكّل كل من ميشال فوكو و أنطونيو غرامشي و مفكري مابعد الحداثة أمثال جاك دريدا مرجعيات إدوارد سعيد في تقويض الإرث الغربي مؤسسا بذلك لخطاب مابعد الكولونياليّة بعد الخوض في الإرث الثقافي الشرقي لكتّاب ما بعد الاستعمار.

المنارة للاستشارات

الهوامش:

[1] - صامويل هنتنغتون، صدام الحضارات ... إعادة صنع النظام العالمي، تر: طلعت الشايب، سطور، مصر، ط2 1999، ص 109 .

[ii]-إدوارد سعيد، الاستشراق المعرفة السلطة الانشاء، تر: كمال أبو ديب، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، ط6 2003، ص 78 .

[iii]- المرجع نفسه، ص35 و 36 .

[iv]- المرجع نفسه، ص 255.

[v]- إدوارد سعيد، الاستشراق: المفاهيم الغربية للشرق، تر: محمد عناني، رؤية للنشر و التوزيع، القاهرة، ط1، 2006 ص186

[vi]-السيد ولد أباه، التاريخ و الحقيقة لدى ميشيل فوكو، الدار العربية للعلوم، بيروت، ط2، 2004، ص 192.

[vii]- ميشيل فوكو، نظام الخطاب، تر: محمد سبيلا، دار التنوير للطباعة و النشر و التوزيع، بيروت، ط3، 2012 ص66.

[viii]- المرجع نفسه، ص70.

[ix]- إدوارد سعيد، العالم و النص و الناقد، تر: عبد الكريم محفوض، اتحاد الكتاب العرب، ط1، 1996، ص44.

[x]- فريال جبوري غزول:«الثقافة بين الهيمنة و المقاومة»،مجلة فصول،ع 64، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة،2004، ص 124.

[xi]- فرانسوا ليوتار، الوضع ما بعد الحداثي، تر:أحمدحسان، دار الشرقيات، القاهرة، ط1، 1994، ص 64.

[xii]- إدوارد سعيد، الاستشراق المفاهيم الغربية للشرق، ص 322.

[xiii]- المرجع السابق، ص 06.

[xiv]- المرجع السابق، ص10.

[xv]- عبد الله إبراهيم، السردية العربية الحديثة، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء/المغرب، بيروت/لبنان، ط1،2003 ، ص68.

[xvi]- إدوارد سعيد، الثقافة والإمبريالية، ص58.

[xvii]- إدوارد سعيد: «تمثيل المستعمر محور الأنثربولوجيا»، تر: صبحي حديدي، مجلة الكرمل، ع 44 الاتحاد العام للكتاب والصحفيين الفلسطينيين، فلسطين،1992 ص21 .

[xviii]- انظر، محمد شاهين:«إدوارد سعيد ذاكرة ليست للنسيان»، مجلة الكرمل، ع 78 الاتحاد العام للكتاب و الصحافيين الفلسطينيين، رام الله، فلسطين، شتاء 2004 ص64.

[xix]- إدوارد سعيد، الثقافة والإمبريالية ص139.

[xx]- عبد الله إبراهيم، السردية العربية الحديثة،ص 71.

[xxi]- محمد الكوش: «إدوارد سعيد وإشكالية العلاقة بين الفكر الاستشراقي والمشروع الإمبريالي الخطاب الأمريكي نموذجا»، مجلة بصمات، ع2، دار القرويين، الدار البيضاء، ط2، 2007، ص ص75و76.

[xxii]- المرجع نفسه، ص76.

[xxiii]- عبد السلام يخلف : «ألبير كامو... الكاتب الذي قال الجزائر أمة افتراضية» جريدة النصر الثلاثاء 05جانفي2012، ص15.

[xxiv]- إدوارد سعيد، الثقافة والإمبريالية، ص240

المنارة للاستشارات
ww

[xxv]- فريال جبوري غزول:«تمثل النظرية الأدبية وثقافة المقاومة عند إدوارد سعيد»، مجلة الآداب مجلد51، ع11و12، بيروت، نوفمبر ديسمبر2003،ص51.

[xxvi]- ميشيل فوكو، تاريخ الجنسانية01، إ رادة المعرفة، تر: مطاع الصفدي و جورج أبي صالح، مركز الإنماء القومي، بيروت، 1990، ص104.

[xxvii]- إدوارد سعيد، الثقافة والإمبريالية، ص155.

[xxviii]- غاوري فانسواناثان، السلطة و السياسة والثقافة حوارات مع إدوارد سعيد ص62.

[xxix]- فرانز فانون، معذبو الأرض، تر: سامي الدروبي، جمال أتاسي، دار الطليعة، بيروت،1996 ص30.

[xxx]- إدوارد سعيد، الثقافة والإمبريالية، ص235.

[xxxi]- المرجع السابق، ص325.

[xxxii]- علي سعيد:«كيف وقع مصطفى سعيد أسير النظرة الاستشراقية لإدوارد سعيد»، مجلة فصول ع64، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، صيف2004 ص125.

[xxxiii]- أُنظر، عز الدين المناصرة:«إدوارد سعيد ... والنقد الثقافي المقارن:قراءة طباقية»، مجلة فصول ع64، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، صيف2004 ص128.

المنارة للاستشارات
ww